١٦

بغداد
بقية بغداد - تبريز - الموصل - حجته الثانية - مجاورته بمكة - خروجه إلى اليمن

احتفاظ بغداد بجانب من مجدها العلمى القديم

يستفاد من كلام ابن بطوطة أن بغداد احتفظت إلى أيامه ببقية صالحة من مجدها العلمى التالد، وإذا كانت زعامة العلم قد انتقلت منها إلى غيرها من المدن ، وخاصة القاهرة ودمشق ، ومدن أخرى مثل تبريز التى كانت عاصمة إيلخانية فارس - فإن أهل العلم فى بغداد حرصوا على المحافظة على الشكل والهيبة العلمية لبلدهم ، والصورة التالية مصداق لذلك :

« وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق ، عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تُعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حدة ، وفى وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تُضرب بحسنها ، وفى آخرها المدرسة المستنصرية، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البُسُط . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السواد معتمًّا ، وعلى يمينه ويساره مُعيدان يعيدان كل ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ، وفى داخل هذه المدرسة الحمَّام للطلبة ودار الوضوء » (ص ٢١٩) .

وبهذه المناسبة يذكر ابن بطوطة كيف قرأ فى مسجد الخليفة فى بغداد مسند الدارمى (أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفضل بن بهرام) على مسند العراق ، كما يقول أبو حفص عمر بن على القزوينىّ ، وهو ينص على ذلك نصًّا واضحاً كأنه يريد أن يقرر فى ذهن قارئه أنه أكمل دراسته على الطريق ، بل يحدد تاريخ هذا السَّماع كما حدد تاريخ سماعه البخارى ، والتاريخ هو (رجب ٧٢٧هـ/ مايو ١٣٢٧م) .

ويطيل ابن بطوطة الحديث عن أبى سعيد بهادرخان سلطان العراقين؛ أى: العراق وفارس ؛ وهو آخر إيلخانات إيران ، وهو ابن السلطان محمد خدابنده المشهور باسم أولجايتو ، وقد حكم فيما بين سنتى ١٣٠٥ و١٣١٦م .

وأولجايتو هو ثامن السلاطين من حفدة جنكيزخان ، وهو الذى اعتنق الإسلام ، ولا ينبغى الخلط بين أولجايتو هذا وأولجايتو حفيد قبلاى خان إمبراطور الصين من المغول الذى حكم فيما بين سنتى ١٢٩٤و ١٣٠٧م.

وجدير بالذكر أن أولجايتو محمد خدابنده الذى اعتنق الإسلام كان قد تنصَّر فى مداخل شبابه ، ثم هداه الله إلى الإسلام ، وإليه يُنسب جامع من أجمل مساجد تبريز الباقية إلى اليوم من عصر الإيلخانات . وأبو سعيد هو تاسع الإيلخانات وآخرهم ، وبعده تفرقت السلطنة ، وقد قَصَّ علينا ابن بطوطة تفاصيل هذا التفرُّق .

أسواق تبريز

ومن بغداد يذهب ابن بطوطة فى موكب السلطان أبى سعيد إلى تبريز ، ويصف لنا سوق الجوهريين فى تبريز قال : « فَحَارَ بَصَرِى مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهى بأيدى مماليك حِسَان الصور عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهنَّ يشترينها كثيراً ويتنافسنَ فيها ، فرأيت من ذلك كله فتنة يُستعاذ بالله منها » (ص ٢٢٦) .

وبعد أن يصف سوق العنبر والمسك ثم المسجد الجميل الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان - يَلْقَى السلطان ، ويبلغه أنه يريد الحج ، فيعطيه السلطان زاداً وحصاناً . ثم عاد إلى بغداد لينتظر موعد خروج الركب ، ويجد أنه بقى على ذلك شهران ـ فيحفزه حب الرحلة إلى الانتفاع بهذين الشهرين فى رحلة استطلاع إلى الموصل وديار بكر .

سامرّا

وفى الطريق إلى الموصل يزور سامرّا ويصف خرائبها ، ويأتينا بتفسير غير صحيح لاسمها فيقول : إنه سام را ، أى : طريق سام ؛ لأن را معناه بالفارسية الطريق . ومن سامرّا يصل إلى تكريت ويُطرى حسنها ، ويذكر أن أهلها موصوفون بحسن الأخلاق ، ثم يصل إلى موضع يُعرف بالقيارة، أى: مكان القار ، ويقول : « وهناك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار » والمراد - بطبيعة الحال - النفط ، وكان يظهر على وجه الأرض ثقيلاً محمَّلاً بالقار والكبريت، ومن الغريب أنهم كانوا يهتمون بالقار وحده ، ويوقدون النفط ليحترق ويبقى القار وهو مطلبهم .

الموصل

ويطول وقوف ابن بطوطة بالموصل ، ويستطرد فى مدح أميرها علاء الدين على بن شمس الدين الملقَّب بحيدر ؛ لأنه أكرمه وأنزله بداره ، وأجرى عليه الإنفاق مدةَ مقامِهِ عنده .

جبل الجودى

ثم يتابع سيره ويمر بقرى كثيرة ، وعندما وصل جزيرة ابن عمر رأى جبل الجودى الذى استوت عليه سفينة نوح ، ويُسمَّى أيضاً بجبل أرارات وهو فى بلاد الأرمن ، وهو من مفاخرهم .

ثم يزور نصيبين ، ويحدِّثنا عن بسيطها الأفيح ذى المياه الجارية والبساتين الملتفَّة .

وابن بطوطة معجب بجمال بلاد الموصل وسحر الطبيعة فيها ، ونلمح فى كلامه إحساسه المرهف بالجمال ، وتقديره لما يرى من بدائع الطبيعة .

ثم يقول إنه مر بعد ذلك بسنجار ، وهذا خطأ منه فى الترتيب لأن سنجار فى طريق العودة من ماردين إلى الموصل . وعندما ينزل ماردين يُثنى على سلطانها الملك الصالح بن الملك المنصور ، ويشير إلى كرمه على الشعراء ، «وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام» .

ثم عاد إلى بغداد فوجد ركب الحاج على أهبة الرحيل ، وهكذا نرى كيف كان حب الرحلة والتطلع إلى كل جديد مستولياً على نفس هذا الرجل حتى كأنه كان موكَّلاً حقًّا بفضاء الله يذرعه !

حجته الثانية ومرضه على الطريق

وذهب إلى الحج ، وتلك حجته الثانية ، ومن سوء طالعه أنه أُصيب بإسهال شديد فى الطريق ، وقد لازمه الإسهال طول مدة الحج ، فكان يصلى قاعداً ، وطاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً فرساً أعطاه إياه صاحبه القديم البهلوان محمد بن الحُويج أمير ركب الحاج العراقى ، ولم يُشْفَ حتى وصل مِنَى وأفاض منها، وكأنما أتعبه المرض فأقام بمكة مجاوراً السنة التالية ، وهى سنة (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩ - ١٣٣٠ م) .

ابن بطوطة يجاور فى مكة سنة

وجاور معه تلك السنة نفرٌ من كبراء المصريين ، وقد أقام فى المدرسة المظفرية وشُفى تماماً من مرضه وقال : « فكنت فى أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتبار » (ص ٢٣٤) .

وهو يذكر نفراً من كبراء صعيد مصر وفدوا على الحجاز ذلك العام للاعتبار والمجاورة ، وأسعده الحظ بقدوم نفر من أبناء طنجة بلده ، وكذلك نفر من أهل قصر المجاز وأهل القصر الكبير فى شمالىّ المغرب .

ويروى كيف وقعت منازعة بين أمير مكة مبارك بن عطيفة والأمير أَيْدُمُر أمير جندار الناصرى من مماليك مصر ، وقد تعدَّى أيدمر على مبارك ابن عطيفة بالضرب ، فما كان من هذا إلا أن دبَّر مقتل أيدمر واغتاله ، ووقعت فتنة كبيرة، فأرسل الناصر محمد بن قلاوون حملة لتأديب أمير

مكة، وانتهى الأمر باعتذار مبارك وإسلامه نفسه طائعاً للناصر ، فعفا عنه وعاد العسكر إلى مصر .

وبعد أن استوفى ابن بطوطة ما أراد من المجاورة بمكة خرج قاصداً زيارة اليمن ، ولم يكن رآها قبل ذلك .

ولا بد أنه كان لليمن سحر كبير على نفس ابن بطوطة ، لأننا سنلاحظ أنه يصر على زيارته المرة بعد المرة ، وسيتعرض فى سبيل ذلك لكثير من المهالك ، ولكن ذلك لن يصرفه عن زيارة اليمن ، فسيحاول حتى يُوفَّق فى النهاية إلى زيارته ، ولأمرٍ ما سنشعر فى كلامه عن اليمن وكأنه قد خاب رجاؤه . وكأنه كان يتوقع أن يرى لليمن صورة أخرى غير التى وجده عليها ، والحقيقة أن بلاد اليمن خلال تلك الأعصر كانت قد تدهورت أحوالها وفقدت الكثير من بهائها نتيجة لظروفه التاريخية القاسية التى مر بها ولكنه برغم ذلك ظَلَّ يتمتع بسمعة بعيدة، وسنرى أن ابن بطوطة لن يجد فى اليمن مكاناً جميلاً يعجبه إلا صنعاء ، ولهذا فسيطيل الكلام عنها ، ثم إننا سنرى أنه لن يطيل المقام فى اليمن ، بل سيسرع بالخروج منه لأنه لا يجد فيه مكاناً ينتظره .

وعلى أى حال فإن ابن بطوطة من الرحَّالة القلائل الذين أصرُّوا على زيارة اليمن فى تلك العصور ، وقد وُفِّقَ فى ذلك وأعطانا صورة لا بأس بها عن ذلك البلد الذى كان الطريق إليه عسيراً دائماً سواء بالبر أم بالبحر .

* * *